بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

على الرغم من طول المسافة بين مصر والحبشة في عصور لم تعرف من وسائل المواصلات سوى الدواب والسفن التى تسير بالشراع أو المجداف فإن هناك روابط عديدة قوية ربطت هذين البلدين منذ أقدم العصور .

ومهما تتعدد هذه الروابط في ضوء الاعتبارات الاقتصادية والدينية والإفريقية ، فإن ثمة رباط أزلى خالد ، ربط البلدين على مر عصور التاريخ ، ومازال يربط بينهما رباطاً قوياً متيناً ؛ أعنى رباط النيل الذى تنبع بعض روافده الأساسية من بلاد الحبشة ، فتجلب معها الحياة وماء الفيضان إلى البلاد التى يمر بها حتى يصب في البحر المتوسط . وإذا ذكرنا روافد نهر النيل ببلاد الحبشة وما يرتبط بها من مياه الفيضان ، فعلينا أن نذكر أن الحياة بمصر ظلت حتى العصور الحديثة تعتمد على فيضان النيل بالذات ؛ حيث أن مصر بوجهيها البحرى والقبلى لم تعرف حتى أوائل القرن التاسع عشر أسلوباً غير رى الحياض لاستثمار أراضيها الزراعية . فإذا جاء الفيضان من الحبشة طيباً ، أمكن رى جميع الأراضى الزراعية وزراعتها بالغلة الواحدة التى تعتمد عليها البلاد والعباد طيلة العام . أما إذا جاء فيضان النيل من الحبشة ضعيفاً ، فكان معنى ذلك كارثة ، أهم مظاهرها الغلاء والجوع وانتشار الوباء ، وسقوط آلاف الموتى في الطرق دون أن يجدوا أحياناً من يقوم بدفنهم ومواراة أجسادهم في التراب . وكثيراً ما تكررت هذه الظاهرة في مصر طوال

العصور الوسطى ، فتعرضت البلاد لعديد من الشدائد ، بسبب نقص مياه الفيضان ، وهو الأمر الذى شرحه المقريزى في كتاب خاص[١] .

وقد أدرك الكتاب والمؤرخون في العصور الوسطى أهمية رابطة النيل بين مصر والحبشة . فذكر القلقشندى عن أهل الحبشة أنهم « يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر إلى مصر، ويساعدون على إصلاح سلوكه، تقرباً لصاحب مصر . » كذلك ذكر القلقشندى — نقلاً عن المؤرخ المسيحى ابن العميد — أنه لما انخفض النيل عدة سنوات وتعرضت البلاد للشدة المستنصرية العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ، ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) ؛ بادر الخليفة بإرسال البطريرك إلى الحبشة لاستدراك الأمر وإصلاح مجارى النيل[٢] . وسواء كان هذا الأمر قد حدث فعلاً أو لم يحدث ، فالذى يعنينا هو إحساس المعاصرين بخطورة رابطة النيل بين مصر والحبشة ؛ وهى في حقيقة أمرها رابطة الحياة والبقاء . . .

أما الروابط الاقتصادية ، فكان من الطبيعى أن تحتل مكاناً هاماً بين بلدين ، يقع أحدهما عند الطرف الشمالى للبحر الأحمر، ويقع الآخر عند طرفه الجنوبي . وإذا ذكرنا البحر الأحمر ، فإنما نعنى ذلك الطريق التجارى الخطير الذى ظل طوال العصور التاريخية يربط بين بلاد شرق إفريقية وجنوب آسيا من ناحية ، وبلاد حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى. حقيقة إنه وجدت طرق أخرى تسلكها تجارة الشرق إلى الغرب ، مثل طريق الخليج والعراق فالشام أو آسيا الصغرى ، ومثل طريق الصين فتركستان فموانى البحر الأسود . . . ولكن مهما تتعدد هذه الطرق ، فإن التاريخ أثبت دائماً أن طريق البحر الأحمر هو أفضلها وأيسرها وأقصرها ، وأقلها نفقات وأكثرها أمناً ؛ وخاصة أن الطرق الآسيوية البرية تعرضت في كثير من عصور التاريخ للعبث وعدم الاستقرار نتيجة للهجرات البشرية أو الغزوات

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ؛ ج ٥ ص ٣٢٣

الحربية ، التى ما فتئت تنبعث بين حين وآخر من جوف القارة الآسيوية، وتنطلق لتهدد أمن الطرق التجارية البرية بين الشرق والغرب .

وإذا كانت حتشبسوت قد أرسلت بعثتها التجارية الشهيرة إلى بلاد بونت — وهى البلاد المعروفة اليوم تقريباً باسم الصومال — لتجلب البخور وغيره من الحاصلات إلى مصر ، فإن بلاد الصومال كانت في مختلف عصور التاريخ القديم والوسيط جزءاً متمماً لبلاد الحبشة ؛ خاصة وأن التوجيه الجغرافي للحبشة يتجه دائماً ناحية الشرق حيث البحر الأحمر والمحيط الهندى . وربما كان من أسباب ذلك أن انهار الحبشة — مع كثرتها واتجاهها في جريانها جهة الغرب — أى جهة بلاد السودان — فإن هذه الأنهار في جملتها لاتصلح للملاحة داخل بلاد الحبشة ذاتها ؛ مما جعلها عديمة القيمة تقريباً في تدعيم الروابط المختلفة بين الحبشة وبلاد السودان . وبالتالى فإن اتجاه الحبشة وأهلها ظل دائماً ناحية الشرق لا الغرب [١] .

وهكذا قامت علاقات تجارية بين مصر والحبشة منذ أقدم العصور ، فكانت مصر تستورد عن طريق الحبشة البخور والأبنوس والجلود والعاج والأخشاب ، فضلاً عن الحديد والذهب والفضة[٢] وكانت بعض المدن الحبشية — مثل عدول ومكانها الحالى ميناء زولا جنوبي مصوع — مراكز تجارية هامة ، بحكم مالها من موقع متوسط بين بلاد جنوب آسيا وشرقها من ناحية وبلاد البحر الأحمر وخاصة مصر من ناحية أخرى[٣] .وفي هذا الميناء بالذات كان يجتمع كثير من التجار الهنود والعرب وغيرهم ، ممن يقومون بعمليات التبادل التجارى في تلك المنطقة الحساسة . هذا فضلاً عن أن ميناء عدول كان يقع على طريق التجارة البرى الذى يربط داخلية بلاد الحبشة بشاطئ البحر ، وهو طريق دائرى يبدأ من عدول ، ويمر بعدوة

---

(١) محمد الصياد : السودان والحبشة ، ص ٢٣٤ ، ٢٤٣

(٢) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٣
Budge : Ethiopia, vol. 1, p. 132.

(٣) D'Abbadie (A) : Douze Ans dans la Haute Ethiopie, Tome 1, p.p. 118-.

وأكسوم وأسمرة ، ثم ينتهى من حيث يبدأ في عدول . وكانت القوافل تقطعه في بضعة أيام (١) .

وفي العصور الوسطى بالذات ، أسهمت في هذا النشاط التجارى على شواطئ بلاد الحبشة بعض الجاليات العربية ، التى نزحت إلى الشاطئ الشرقي لأفريقية من حضرموت وعمان واليمن ، والتى كونت سلطنات أو إمارات إسلامية على شاطئ الحبشة(٢) . وقد ذكر القلقشندى « ما بيد مسلمى الحبشة » من بلاد ، فقال إن هذه البلاد تقع على أعالى بحر القلزم (الأحمر) أى عند طرفه الجنوبي وما يتصل به من بحر الهند ، وذكر أن هذا الشريط الإسلامى من بلاد الحبشة يعبر عنه « بالطراز الإسلامى ، لأنه على جانب البحر كالطراز له » . وإذا كانت هذه البلاد قد عرفت في مصر والشام بإسم « بلاد الزيلع » ؛ فإن زيلع في حقيقة الأمر لم تكن إلا قرية من قراها غلب عليها إسمها . ثم عدد القلقشندى أهم قواعد المسلمين في الحبشة ، أى مدنهم وحواضرهم التى هى مراكز دويلاتهم ؛ فذكر منها سبع هى : أوفات — ويتبعها جبرة وزيلع — ، ودوارو ، وأرابيني ، وهدية ، وشرحا وبالى ، وداره(٣) .

ويهمنا من أمر هذه الدويلات الإسلامية ، التى قامت على ساحل بلاد الحبشة ، أنها احتكرت النشاط التجارى ، وقبضت على زمام الحركة التجارية بين داخلية بلاد الحبشة من ناحية وبلاد البحر الاحمر ويدخل فيها مصر من ناحية

---

(١) Bent : The Ancient Trade Route across Ethiopia, p. 140. (J. R. A. S. ; 1893) &
Martin (V. de Saint) : Eclaircissements Geographiques et Historiques sur l'inctiption d'Adulis.
(J. Asiatiques, 6eme Serie, Tome 2, p.p. 328-401 ; 1863).

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia, p. 32 &
مراد كامل : فاسيلاداس نجاشى الحبشة ص ٢٩ ، الشاطر بصيلى : دويلات على الشاطىء الافريقى ، ص ١٧

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ؛ ج ٥ ص ٣٢٤ ، ٣٣١ . وقد استمد القلقشندى كثيرا مما كتبه من كتاب مسالك الأبصار للعمرى ، وكذلك كتاب التعريف .

أخرى ، بما في ذلك تجارة المرور الآتية من جنوب آسيا إلى البحر الأحمر عن طريق موانى الحبشة . ذلك أن سيطرة هذه الجماعات الإسلامية على موانى الحبشة مثل زيلع ومصوع وتاجوره وأمفيليا — ، أدت إلى سيطرتها على الطرق البرية الرئيسية التى تربط داخلية بلاد الحبشة بالبحر ، مثل طريق تاجوره أنكوبار ماراً ببلدة حوصا ، وطريق مصوع جندار ماراً ببلدة عدوة ، وغيرها من الطرق التى تبدأ من أمفيليا وسواكن وتنتهى داخل بلاد الحبشة(١).

وربمـــا ساعد على النشاط التجارى لتلك الجاليات الإسلامية ، على سواحل الحبشة ما عرف عن المسلمين بوجه عام من نشاط تجارى ضخم واسع ، وحب للأسفار والرحلات طوال العصور الوسطى ، حتى أصبح « التاجر الغنى في القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) هو ممثل الحضارة الإسلامية . . . وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية . »(٢) فالنشاط التجارى الذى نهض به المسلمون في الحبشة في العصور الوسطى لم يكن إذاً أمراً غريباً ، وإنما كان في حقيقة أمره جزءاً من الصورة العامة للنشاط التجارى الضخم الذى نهض به المسلمون في تلك العصور ، من المحيط الأطلسى غرباً حتى المحيط الهادى شرقاً ، ومن بحر الهند جنوباً حتى سهول روسيا شمالاً .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن التجارة بالنسبة للجاليات الإسلامية على ساحل الحبشة كانت تمثل الأسلوب الرئيسى — إن لم يكن الوحيد — للكسب والحياة في تلك العصور ، نظراً لفقر البيئة من ناحية ، وعدم سماح الأحباش المسيحيين لإخوانهم المسلمين بتولى الوظائف العامة وممارسة كثير من الأعمال من ناحية أخرى ؛ أدركنا السر في تفوق تلك الجاليات الإسلامية في النشاط التجارى ، الأمر الذى مكنها من جمع ثروة طائلة ، دفعتهم في طريق التقدم

---

(١) James : Routes of Abyssinia, p.p. 2-11.

(٢) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥

الحضارى[١] . وهناك رأى يؤكد أن الأحباش أنفسهم يحتقرون — بحكم طبيعتهم — ممارسة النشاط التجارى ، الأمر الذى ساعد بدوره على احتكار المسلمين على سواحل الحبشة للتجارة[٢] . ونستطيع أن نقرر أن هذه الحقيقة الخاصة باحتكار مسلمى الحبشة للنشاط التجارى في العصور الوسطى كانت من العوامل المشجعة لزيادة الروابط الاقتصادية ، بين بلاد الحبشة من جهة ، وكثير من بلاد العالم الإسلامى — وعلى رأسها مصر — من جهة ثانية . وحسبنا ما يذكره القلقشندى من أن أوفات وأعمالها كانوا يستخدمون العملة المصرية « وليس بأوفات سكة تضرب ، بل معاملاتهم بدنانير مصر ودراهمها الواصلة إليها صحبة التجار »[٣] . وثمة إشارات متناثرة في المراجع إلى قيام السفن برحلات منتظمة بين موانى الحبشة وشرق أفريقيا من ناحية ، وموانى مصر على البحر الأحمر من ناحية أخرى . من ذلك — على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره يحى بن الحسين في كتاب غاية الأماني « . . . ثم أركبه سفينة سواكنية إلى مصر. . . »[٤] .

على أن علاقة مسلمى الحبشة بمصر في العصور الوسطى ، لم تقف عند حد الصلات الاقتصادية ، وإنما تبدو هذه العلاقة أشد وضوحاً في الجوانب الدينية والثقافية . ذلك أن مسلمى الحبشة كانوا يلتقون بإخوانهم المصريين في موسم الحج ، حيث يتم تبادل الأفكار والأخبار التى تعنى المسلمين جميعاً . ومن المعروف أن مصر احتلت مكانة خاصة في العالم الإسلامى منذ منتصف القرن الثالث عشر بالذات ، عندما تم إحياء الخلافة العباسية بمصر سنة ١٢٦١ م بعد سقوطها تحت حراب المغول في العراق . وترتب على ذلك أن جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها نظروا إلى القاهرة نظرة خاصة بوصفها قاعدة الخلافة الإسلامية . كذلك حرص كثير من ملوك المسلمين وأمرائهم

---

(١) Combe et Tamisier : Voyage en Abyssinie, T. 4, p.p. 63-65.

(٢) مراد كامل : فى بلاد النجاشى ، ص ١١٠

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٣١

(٤) يحيى بن الحسين بن القاسم : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، حوادث سنة ٥١٠ هـ (مخطوط) .

على الحصول على تفويض بالحكم من الخليفة العباسى ؛ وعلى استرضاء سلاطين المماليك في مصر بوصفهم القوة السياسية والحربية الكبرى في العالم الإسلامى ، المتمتعين ببيعة الخلافة العباسية والقائمين على حمايتها . ولا شك في أن أمراء المسلمين بالحبشة ساروا في نفس هذا التيار العام لبقية الدول الإسلامية ، بدليل مانجده من إشارات متناثرة في المراجع العربية المعاصرة عن الحبشة وأمرائها .

وإذا كانت القاهرة قد ورثت بغداد في مركزها الدينى في العالم الإسلامى ، فإنها ورثتها أيضاً في مكانتها الثقافية والعلمية ، فنزح إليها أساتذة العلم وطلابه ، لاعتقادهم أن العلم يوجد حيث توجد الخلافة . ومن بين طلاب العلم الذين وفدوا على القاهرة في ذلك العصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامى كانت نسبة كبيرة من مسلمى الحبشة الذين صارت لهم أروقة خاصة بالأزهر[١] . واستمر نزوح الأحباش المسلمين إلى الأزهر لطلب العلم قروناً طويلة ، حتى أننا نعرف عن مؤرخ مصر الكبير « الجبرتي » ، أن جده السابع الشيخ عبد الرحمن رحل من الحبشه إلى مصر في أوائل القرن العاشر للهجرة ، وجاور بالأزهر ، وتولى مشيخة رواق الجبرتية[٢] . ومن أولئك الأحباش الذين جاوروا بالأزهر وبرزوا في ميدان العلم الشيخ الإمام الزيلعى فخر الدين عثمان بن على ، شارح الكنز والمتوفي سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) ؛ والمحدث الزيلعى جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفي سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) ؛ والعارف بالله

---

(١) Trimingham : op. cit., p. 62 .

(٢) الجبرتى : نسبة الى جبرة بفتح الجيم والباء الموحدة ، وقيل جبرت — وهو الاسم الذى يطلق على أوفات ، كبرى مدن المسلمين وأماراتهم بالشام .

(القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٢٥) .

وجدير بالذكر أن لقب « الجبرتى » ظهر أيضا فى كثير من البلاد العربية الاسلامية ، المطلة على البحر الأحمر ، مما يشير الى أن بعض المسلمين الأحباش — ومن جبرة أو جبرت بالذات — نزحوا الى تلك البلاد . من ذلك أنه كان من علماء عدن فى القرن التاسع الهجرى الشيخ اسماعيل الجبرتى ، وكذلك ظهر فيها فى القرن العاشر الشيخ عمر الجبرتى . انظر : يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ، حوادث سنة ٨٦١ هـ ، سنة ٩٢٣ هـ (مخطوط) .

الشيخ على الجبرتي الذى اعتقد السلطان قايتباى في صلاحه وولايته ، وتوفي سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م)[١] . ومن الواضح أن كثيراً من الأحباش الذين تلقوا العلم بالأزهر ، عادوا إلى بلادهم بعد إتمام دراستهم ، وهناك نظر إليهم إخوانهم المسلمون نظرة إجلال واحترام ، فتقلدوا المناصب الكبرى في المجتمع الإسلامى بالحبشة ، مثل مناصب القضاء والإفتاء ، وغيرها[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقات الرسمية بين مصر والحبشة في العصور الوسطى تطورت بصفة رئيسية في ظل المؤثرات المسيحية . ذلك أن انتشار المسيحية في الحبشة ارتبط ارتباطاً شديداً بالكنيسة المرقسية بالاسكندرية وذلك منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الرابع للميلاد ، وهو العصر الذى تم فيه الاعتراف بالمسيحية كديانة مشروعة مرخص لها بالحياة في العالم الروماني. وثمة قصة متواترة في المراجع خلاصتها أنه حدث في عهد أثناسيوس — وهو البطريرك العشرون للاسكندرية (٣١٨ — ٣٦٤ م) ، أن حضر من الحبشة إلى الاسكندرية رجل إسمه فرومنتيوس ، حكى لخليفة مار مرقس — أعنى البطريرك أثناسيوس — قصة طويلة ؛ جاء فيها أنه سافر أيام شبابه مع زميل له إسمه أديسون ، في ركاب قريب لهما هو الفيلسوف ميروبيوس . وعند شاطئ الحبشة ، جنحت بهم السفينة ، فخرج سكان الساحل إليهم وقتلوهم ، ولم يستطع النجاه سوى فرومنتيوس وزميله أديسيوس ، إذ هربا نحو شجرة كبيرة ، وركعا تحتها ، وأخذ يصليان إلى الله طالبين إلى الله أن يحميهما من الخطر المحدق بهما . وبعد أن فرغ الأهالى من قتل جميع من بالسفينة ونهب ما عليها ، لمحوا أثناء عودتهم الرجلين الشابين — فرومنتيوس وأديسيوس — راكعين يتعبدان ، فلمسوا فيهما الطيبة ، وأشفقوا عليهما ؛ وقدموهما هدية إلى ملك الحبشة الذى حررهما وعهد إليهما بتربية ولديه بعد أن أصبحا موضع ثقته . وعند وفاة ذلك الملك ، قام فرومنتيوس وزميله بالوصاية على ولديه ، وبإدارة شئون المملكة ، حتى أدرك الأميران سن الرشد ، فاستغل

---

(١) يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ص ٦٨ ، أحمد القنائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ١٠

(٢) مراد كامل : فى بلاد النجاشى ، ص ٣٥ ، ٩٢

الوصيان تلك الفرصة ، وعملا على نشر المسيحية في بلاد الحبشة بمختلف الوسائل . ولما بلغ الأميران رشدهما وتسلما مقاليد الحكم في البلاد ، أستأذن فرومنتيوس وزميله في العودة إلى بلادهما ، فعاد أديسيوس إلى صور ؛ وعاد فرومنتيوس إلى الاسكندرية مسقط رأسه ، ليروى قصته للبابا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية ، ويطلب منه أن يُعين أسقفاً للحبشة يلتف حوله المسيحيون فيها(١) .

وكان أن استمع أثناسيوس إلى تلك القصة الغريبة ، فلم يجد أحق بشرف الرسامة أسقفاً على بلاد الحبشة من فرومنتيوس نفسه ، فعينه أسقفاً على الحبشه سنة ٣٢٦ م ، وودعه أثناسيوس عند سفره ، بعد أن زوده بالنصح والإرشادات(٢) . وعند وصول فرومنتيوس إلى الحبشة ، خرج الأحباش للقائه فرحين مهللين ، ولقبوه أبون سلامه — أى معلن النور — وهو اللقب الذى مازال يلقب به مطارنة الحبشة حتى اليوم . ومنذ ذلك الوقت أخذت المسيحية تنشر في الحبشة انتشاراً سريعاً وفق المذهب الأرثوذكسى ، وعلى هدى كنيسة مار مرقس بالاسكندرية ؛ الأمر الذى أوجد رباطاً متيناً قوياً بين مصر والحبشة في العصور الوسطى . ويقال إن فرومنتيوس شيد أول كنيسة في بلدة مصوع في القرن الرابع للميلاد مما أوجد للكنيسة الحبشية مركزاً يلتف حوله المسيحيون الأحباش في ذلك الدور المبكر(٣) .

وجدير بالذكر أن انتشار المسيحية بالحبشة لم يقم على أساس جهود الأقباط المصريين وحدهم ، وإنما وصل إلى الحبشة في النصف الثاني من

---

(١) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، ص ١٩٧
ويلاحظ أن قصة فرومنتيوس تشبه فى وجوه كثيرة قصة سوكات مؤسس الكنيسة الايرلندية . انظر :
Cambridge Med. Hist. vol. 1, p. 533.

(٢) ذكر بعض الكتاب أن مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ أكد تبعية كنيسة الحبشة لبطريركية الاسكندرية . ومعنى هذا أن الاجراء الذى اتخذه أثناسيوس كان تأكيدا وتنفيذا لقرار مجمع نيقية المسكونى . انظر :
Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, p. 179.

(٣) Castonner : L'Abyssinie et les Italiens, p. 86.

القرن الخامس للميلاد تسعة من الرهبان السوريين ، عرفهم الأحباش باسم القديسين ، وهؤلاء كان لجهودهم أثر كبير في تدعيم المسيحية ونشرها بالحبشة ، الأمر الذى تشهد عليه آثار الآداب اليونانية والأرامية في الأدب الحبشى[١] . على أن ذلك لم يقلل مطلقاً من جهود رجال الدين المصريين في النهوض بمهمة نشر المسيحية وتثبيت دعائمها بالحبشة ، وخاصة على أيدى الرهبان المصريين . ومن الثابت في التاريخ أن مصر كانت البلد المسيحى الأول الذى شهد مولد الرهبانية والديرية ومن مصر انتشرت تلك الحركة الخطيرة في جميع البلاد المسيحية الأخرى [٢] . وإذا كان الرهبان البندكتيين قد أخذوا على أنفسهم مهمة نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية في شمال أوربا وغربها ، فإن الرهبان المصريين نهضوا بمهمة نشر المسيحية وإرساء قواعد المذهب الأرثوذكسى في بعض البلاد المجاورة لمصر، ومنها الحبشة بالذات . وهكذا أخذت الأديرة الباخومية التى عرفتها مصر منذ القرن الرابع تنتشر في الحبشة منذ القرن السادس فصاعداً ، نتيجة لانتقال بعض الرهبان المصريين إلى الحبشة[٣] . وكثير من هؤلاء الرهبان المصريين كانوا ينتقلون إلى الحبشة ومعهم بعض كتب الصلوات والطقوس الدينية ، فضلاً عن سير الآباء والقديسين ، فكانت هذه الكتب تترجم في الحبشة إلى لغة الأحباش ، وتصادف رواجاً كبيراً بينهم ، فلا تكاد تخلو كنيسة أو ديرمنها ، الأمر الذى أدى إلى تقوية الروابط الروحية بين مصر والحبشة ، بالإضافة إلى تدعيم الصلات بين الكنيستين المصرية والحبشية في ظل المذهب الأرثوذكسى[٤] .

---

(١) مراد كامل : الرهبنة فى الحبشة ، ص ٣٠.

M. Kamel : Translations from Arabic in Ethiopian Literature, p. 21 (B. S. Arch. C. vol. 2 ; p.p. 61-71 — Le Caire, 1941).

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، الباب الثامن .

(٣) Budge : Ethiopia, vol. 1, p. 153 &

مراد كامل : الرهبنة فى الحبشة ، ص ٣٠ (مجلة رسالة مارمينا ، عدد ٣ ، مايو ١٩٤٨) .

(٤) Geddes : Church Hist. of Ethiopia, p. 83.

ويبدو أن هذه التراجم للنصوص القبطية والعربية كان ينقصها التوحيد والدقة ، الأمر الذى جعل أحد مطارنة الحبشة المصريين في القرن الثالث عشر ، وهو الأب سلامة — الملقب بالمترجم — يعمل على جمعها ومراجعتها وتصحيحها ؛ مما جعل بعض الكتاب ينسبون إلى الأب سلامة المصرى الفضل في وضع بذور المكتبة الدينية بالحبشة(١) .

وعلى هذا النحو ارتبطت مصر بالحبشة في العصور الوسطى برباط آخر هو رباط الكنيسة الأرثوذكسية ، فنظر الأحباش إلى كنيسة الاسكندرية نظرة تكبير وإجلال ، واعتبروها مصدر الإلهام الروحى لهم . وبانتشار المسيحية في الحبشة ازدادت مكانة المطران المصرى فيها أهمية ورسوخاً ، حتى لقد فاقت أهميته في بعض الأحيان مكانة ملوك الحبشة أنفسهم ، فكان أمره مطاعاً وحرمته وافرة ، ومقره حرماً يلجأ إليه المظلوم ، فلا يجرؤ كائناً من كان على الاقتراب منه أو مسه بسوء(٢) . ويهمنا في هذا المقام أن نؤكد أهمية الحقيقة الخاصة بأن مطران الحبشة كان دائماً أبداً من القبط ، وتتم قداسته في الكتدرائية المرقسية بمصر . وظل الوضع على ذلك من القرن الرابع للميلاد حتى منتصف القرن العشرين ، عندما سمح البطريرك للأحباش باختيار مطران من جنسهم ، وذلك عقب موت كيرلس آخر المطارنة المصريين سنة ١٩٤٦ ، ولو أن الرسامة لاتزال تتم على يدى البابا المرقسى(٣) . ويذكر بروشون مدى ترحيب أهل الحبشة — على اختلاف طبقاتهم — بكل مطران جديد موفد إليهم من مصر ، إذ كانوا يخرجون للقائه ، وعلى رأسهم الملك وكبار رجال الدولة ؛ وينتظرونه على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة ؛ فإذا رأوه ركعوا أمامه ونثروا فوق رأسه الذهب وأحرقوا حوله

---

(١) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse d'Abyssinie, T. 1, p. 297.

(٢) Castonnet (Des Foses) : L'Abyssinie et les Italiens, p. 99.

(٣) Budge : Book of the Saints of the Ethiopian Church, vol. 2, p. 388 & M. Kamel : La derniere phase des Relations entre L'Eglise Copte et celle d'Ethiopie, p.p. 8-9. (B. S. Arch. C. Tome 14 — Le Caire, 1958).

البخور ، ونشروا فوق رأسه مظلة من القماش الثمين الموشى بالذهب ، ومشوا خلفه حتى يصل إلى الكنيسة ليصلى بهم [١] .

وإذا كانت هذه هى مكانة المطران المصرى المرسم على الحبشة ، فمن باب أولى أن يكون بطريرك الإسكندرية — خليفة مار مرقس — أعظم مكانة عند ملوك الحبشة وشعبها ؛ فكانت كلمته مسموعة وأوامره مطاعة ومشيئته نافذة . ويروى القلقشندى كيف كان ملوك الحبشة يحترمون المكاتبات التى تصلهم من بطارقة الاسكندرية ؛ فيقول ما نصه : « ولأوامر البطريرك عنده (عند ملك الحبشة) ما لشريعته من الحرمة . وإذا كتب إليه كتاباً فأتى ذلك الكتاب إلى أول مملكته ؛ خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم . ولا يزال يحمله بيده حتى يخرجه من أرضه ، وأرباب الدولة في تلك الأرض كالقسوس والشمامسه حوله مشاه بالأدخنة . فإذا خرجوا من حد أرضهم ، تلقاهم من يليهم أبداً كذلك ، في كل أرض بعد أرض ، حتى يصلوا إلى أمحرا[٢] ، فيخرج صاحبها بنفسه ويفعل مثل ذلك الفعل الأول ؛ إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبي الملك . ثم لايتصرف الملك في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير ، حتى ينادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد في الكنيسة ، ويُقرأ والملك واقف ، ثم لايجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به (بطريرك الإسكندرية) » [٣] .

وكانت العادة قد جرت في العصور الوسطى بأن يكتب بطارقة الاسكندرية إلى ملوك الحبشة مرتين في كل عام ؛ وإن كان هذا التقليد لم يستمر دائماً بصفة منتظمة ، إذ لجأ بعض حكام مصر إلى منع الاتصال بين بطارقة الاسكندرية وملوك الحبشة ؛ إما خلال موجات اضطهادهم لأهل الذمة — كما فعل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله [٤] — ؛ وإما لتخوفهم من حدوث اتفاق

---

(١) Perruchon (M. Jules) : Extrait de la Vie d'Abba Jean. (Rev. Sem. Tome 6 ; p.p. 367-371. Paris ; 1898).
يحكم على أكثر الحبشة » (ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٣) .

(٢) أمحرا : اقليم من أقاليم الحبشة « وهو الاقليم الأكبر ، وصاحبه

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ؛ ج ٥ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩

(٤) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ، ص ٢٩٠

بين الأحباش المسيحيين من ناحية والقوى الأوربية الصليبية من ناحية أخرى وذلك للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين في مصر ، وقيام بطريرك الاسكندرية بدور الوساطة في إتمام مثل هذا الاتفاق . وقد ذكر السخاوى أن السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) عندما اشتبك مع القوى المسيحية في البحر المتوسط ، وأرسل عدة حملات لغزو رودس ، قبض على بطريرك النصارى في مصر ، « وأمر بكتابة شهادة عليه أنه لايكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ، ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ، ولا أعلى منه ولا دونه إلابإذن من السلطان ووقوفه على كتابته[١] بل لقد كان من النصائح التى يوجهها سلطان مصر إلى بطريرك الأقباط « أن يتوقي ما يأتيه سراً من تلقاء الحبشة حتى إذا قدر ، فلا يشم أنفاس الجنوب ولا يحفل بسؤدد السودان[٢] » .

ويبدو لنا من الوثائق المعاصرة أن ركناً أساسياً من الاتصالات التى كانت تدور بين بطارقة مصر من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى — طوال العصور الوسطى — دارت حول موضوع رئيسى واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو الكرسى الأسقفى فيها . والواقع إن الحبشة بعد انتشار المسيحية فيها صارت لاتستغنى أبداً عن وجود مطران فيها ، لامن أجل النهوض بالشعائر الدينية والإشراف على كنيستها فحسب ؛ بل بعد أن صارت للمطران المصرى في الحبشة مهام أساسية ، اجتماعية وسياسية . فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد ، ويرأس الحفل الكبير الذى يقام في تلك المناسبة ، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه [٣] . ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها في حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر ، بالضبط مثلما كان يفعل سلاطين المماليك في مصر من اصطحاب الخليفة العباسى معهم في حروبهم الكبرى ، طلباً

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢١٠

(٢) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ؛ ص ٤٨

(٣) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧

للبركة وأملاً في النصر[١] . ومطران الحبشة هو الذى يضفى على القوانين الملكية صبغتها القانونية ، وعن طريقه كان يصدر قرار الحرمان ضد أى فرد يغضب عليه ملك الحبشة ، فيصير ذلك الفرد محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها[٢] . وإلى المطارنة المصريين في بلاد الحبشة يرجع الفضل في إصلاح كثير من الأوضاع والعادات الذميمة التى سادت المجتمع الحبشى ، مثل عادة تعدد الزوجات دون حساب ، وهى العادة التى حاربها في غير هوادة المطران ساويرس تنفيذاً لتعليمات البطريرك كيرلس في القرن الثالث عشر[٣] . هذا كله بالإضافة إلى أثر المطارنة المصريين — لافي رسوم الكنيسة الحبشية وطقوسها فحسب — بل أيضاً في بعض المظاهر المتعلقة باستخدام الأجراس وتعليق بيض النعام في الكنائس الحبشية ، على نحو ما عرف في الكنائس المصرية[٤] . ويؤكد بعض الباحثين أن كثيراً من الكنائس التى شيدت بالحبشة في العصور الوسطى ، إنما تشبه في تصميمها وطرازها وهندستها وزخارفها وأسلوب بنائها الكنائس المصرية المعاصرة لها مما يشير إلى قيام مهندسين وعمال مصريين بإنشائها[٥] .

وبناء على هذا الدور الكبير الذى نهض به المطارنة المصريون في بلاد الحبشة في العصور الوسطى ، ازداد حرص ملوك الحبشة في تلك العصور على استحضار مطران جديد من مصر كلما تعرض منصب المطرانية في بلادهم للشغور ، لأنه كان في حقيقة الأمر ضرورة عاجلة لسد فراغ دينى وسياسى واجتماعى في البلاد . وهنا نشير إلى أن الأحباش في تلك العصور ألفوا المطارنة المصريين واعتادوا أساليبهم وارتاحوا إلى سلوكهم ومنهجهم ،

---

(١) René Basset : Etudes Sur l'Histoire d'Ethiopie (J. As. 1881). & ابن اياس : بدائع الزهور ؛ حوادث سنة ٩٢٢ هـ .

(٢) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, Tome 1, p.p. 160-161.

(٣) ابو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ؛ ص ٢٨٠ .

(٤) Budge : History of Ethiopia, vol. 1, p. 163.

(٥) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie vol. 2, p. 32.

فلم يرضوا عنهم بديلاً . حقيقة إنه حدث في بعض الفترات ، عندما تعذر عليهم جلب مطارنة من مصر لظروف معينة ، أن استحضر الأحباش مطارنة سوريين أو كاثوليك غربيين ؛ ولكن هذا كان يحدث لفترة محدودة جداً لايلبث الأحباش بعدها أن يظهروا نفورهم من أولئك المطارنة غير المصريين ويكررون محاولاتهم لاستحضار مطارنة من مصر[١] . ولا يخفى علينا أن وحدة الكنيسة بين مصر والحبشة جاءت مصحوبة بوحدة المذهب اليعقوبي في البلدين . ويؤكد هذه المعاني ما يرويه المقريزى من أن بعض الكاثوليك الذين كانوا يريدون دخول الحبشة حرصوا على إخفاء حقيقة مذهبهم ، والتظاهر بأنهم يعاقبة حتى لايتعرضون للأذى أو القتل[٢] .

وحول هذا الموضوع بالذات — وهو طلب تعيين مطران مصرى على الحبشة — دارت في العصور الوسطى كثير من المكاتبات بين ملوك الحبشة من ناحية وحكام مصر من ناحية أخرى . وترجع معظم هذه المكاتبات التى وصلت إلينا إلى عصر سلاطين المماليك بالذات ، إذ لانجد — للأسف سوى إشارات يسيرة في المراجع عن الاتصالات التى جرت قبل ذلك العصر بين مصر والحبشة . وقد يكون السبب في ذلك طبيعة عصر سلاطين المماليك في مصر ، وما اتصف به ذلك العصر من ازدهار ونشاط العلاقات الخارجية مع الدول الآسيوية والإفريقية والأوربية ، نتيجة قوة سلطنة المماليك في مصر ، وازدياد هيبتها ، مما جعل كافة الدول المجاورة ترسل قصادها ورسلها إلى القاهرة . هذا فضلاً عن نشاط حركة التأليف في عصر المماليك ، الأمر الذى أمدنا بقسط ضخم من المعلومات التاريخية المعاصرة عن ذلك العصر بالذات . ولا ننسى بالإضافة إلى كل ذلك أن عصر سلاطين المماليك في مصر يمثل العصر الذى بلغت فيه نظم الإدارة والحكم درجة كبيرة من الكفاءة والتنظيم ، وأصبح ديوان الإنشاء — بالذات — جهازاً ضخماً

---

(١) Mecaire : Hist. de l'Eglise d'Alexandrie, p. 322.

(٢) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ؛ ص ٣

يقوم بوظيفة وزارة الخارجية اليوم ، له أرشيف كبير تسجل به الرسائل الواردة من الخارج أو الصادرة إلى الخارج ، الأمر الذى مكننا من الوقوف على كثير من المعلومات الهامة عن علاقات مصر الخارجية في ذلك العصر .

ويفهم من المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، وأن هذه السفارة تأخرت في العودة إلى مصر ، مما جعل الظاهر بيبرس يغضب على ملك الحبشة[١] . وقبل أن نتكلم عن طبيعة الاتصالات بين ملك الحبشة والسلطان الظاهر بيبرس ، يصح أن نحاول معرفة السبب الذى دفع بيبرس إلى إرسال سفارته إلى الحبشة . والواقع إن المراجع المعاصرة صمتت صمتاً ملحوظاً ، حتى عن مجرد التلميح إلى هذا السبب . ولكن يبدو لنا أن بيبرس أراد — بوصفه حاكم أقوى دولة إسلامية في الشرق الأوسط وحامى حمى الخلافة العباسية بعد انتقالها إلى القاهرة — أن يستقصى أخبار المسلمين بالحبشة ، ويطمئن على مصائرهم ، بعد أن سمع باضطراب الأحوال في ذلك الدور ، وقيام كثير من الحروب الداخلية فيها ؛ فخشى أن تكون هذه الحروب موجهة من ملوك الحبشة المسيحيين ضد المسلمين هناك . وثمة إشارات في المراجع المعاصرة إلى أن « ملك الحبشة الكافر قتل ملوك الحبشة المسلمين واستولى على بلادهم[٢] » ويبدو لنا أن المسلمين في في الحبشة على أيام السلطان الظاهر بيبرس تعرضوا لشئ من الاضطهاد، مما جعل السلطان بيبرس يرسل سفارته للإطمئنان على أحوالهم واستجلاء حقيقة أمرهم . يؤيد هذا الرأى أن يحبأ صيون — الملقب سلمون — ملك الحبشة ، عندما أرسل بعد ذلك رسالة إلى السلطان المنصور قلاون سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) ، ذكر في رسالته أنه ليس مثل والده — المعاصر لبيبرس — وهو الملك يكونو أملاك (١٢٦٩ — ١٢٨٤) ؛ « وقال أنه ما هو مثل والده، وأنى أحفظ المسلمين في جميع مملكتى ! »[٣] وهذه العبارة في حد ذاتها نستشف منها أن ملك الحبشة المعاصر لبيبرس لم يحفظ المسلمين في بلاده .

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢١٩
(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١١٧ — ١١٨
(٣) المرجع السابق ؛ ص ١٧٠

ومهما يكن من أمر، فإن بيبرس غضب لتعويق سفارته ، وربما لعدم تمكينها من مقابلة « الحطى» ، وهو ملك الحبشة المسيحى . وأحس ملك الحبشة بغضب السلطان بيبرس عليه ، فلم يجرؤ على الاتصال به مباشرة عندما احتاج إلى مطران جديد لبلاده ، فأرسل كتابه إلى مصر عن طريق صاحب اليمن ، وكان ذلك سنة ١٢٧٣ (٦٧٢ هـ) ، راجياً من السلطان أن يطلب من بطريرك الاسكندرية — غبريال الثالث — أن يبعث إلى الحبشة « مطراناً رجلاً جيداً عالماً لايحب ذهباً ولا فضة »[١] وربما يفهم من هذه العبارة الأخيرة في رسالة ملك الحبشة ، أن بعض المطارنة المصريين الذين أرسلوا إلى الحبشة من قبل أظهروا تهالكاً على جمع المال . وثمة ناحية أخرى واضحة في رسالة ملك الحبشة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، هى حرصه على تملق سلطان مصر، والمبالغة في تصغير نفسه أمامه . فملك الحبشة يصف نفسه في رسالته للسلطان بيبرس بأنه « أقل المماليك » ؛ ويدعو للسلطان بيبرس ، فيقول « وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر ، ويهلك الله عدوه. . » ثم إن ملك الحبشة يحرص في رسالته على أن يوضح للسلطان الظاهر بيبرس أنه يحسن معاملة المسلمين في بلاده ، وأن منهم في جيشه مائة ألف فارس مسلم ، « وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يجبون»[٢] وربما كانت هذه العبارة الأخيرة دفاعاً عن النفس ، قصد به ملك الحبشة تبرأه نفسه من التهمة الموجهة إليه بإساءة معاملة المسلمين في بلاده .

ولكن السلطان بيبرس امتنع عن تلبية رغبة ملك الحبشة في إرسال مطران إليه ، ورد على رسالة الحطى الطويلة ، برسالة قصيرة مقتضبة ، يفهم منها استياء السلطان بيبرس لأن ملك الحبشة تغاضى عن قواعد البروتوكول ،ولم

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٤٥ — ٤٦ (مخطوط) .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ٧ ص ٢٤ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦١٦

يتصل بسلطان مصر مباشرة ، وإنما أرسل رسوله إلى صاحب اليمن حيث أقام الرسول حتى يأتي الرد من مصر[١] . ويضيف جاستون فييت أنه لايستبعد أن يكون سبب استياء بيبرس هو أن ملك الحبشة لم يشفع طلبه الخاص بالمطران بالهدايا الثمينة من الذهب والرقيق ، وهى الهدايا التى جرى العرف على إرسالها عند طلب مطران جديد للحبشة[٢] .

وهنا نجد أنفسنا على خلاف في الرأى مع المقريزى الذى يقرر أن الحطى متملك الحبشة طلب من السلطان بيبرس « أن يجهز له مطران من عند البطريرك، فأجيب»[٣] ذلك أن تطور الأحداث التاريخية فيما بعد يتعارض مع رواية المقريزى، لأن ملك الحبشة لم يلبث أن كرر طلبه في عهد السلطان منصور قلاون، واعتذر عما حدث من والده ، وأشار إلى أن الأحباش لم يرتاحوا إلى المطران السرياني الذى جلبوه من سوريا . ومعنى هذا كله واضح ، وهو أن الظاهر بيبرس لم يجب ملك الحبشه إلى طلبه ، الأمر الذى اضطر الملك إلى جلب مطران من السريان . ويضيف بعض الباحثين إلى ذلك أن ملك الحبشة — يكونو أملاك — عندما يئس من رد بيبرس اتجه إلى سوريا ، فاستحضر منها مطراناً سريانياً اسمه يوب Youb ؛ كما نزح إلى الحبشة في ذلك الدور جماعة من الرهبان الدومينكان[٤] .

وقد ذكر محى الدين بن عبد الظاهر نص الرسالتين اللتين أرسلهما الملك يجبأ صيون (صهيون) ملك الحبشة إلى السلطان المنصور قلاون . من

---

(١) « فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الفرض المطلوب ، وانما كتاب السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه ، وأنه وصل من جهة الملك (ملك الحبشة) كتاب وقاصد ، وأنه أقام عنده حتى يسير اليه الجواب » .

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٤١

(٢) Wiet : Les Relations Egypto — Abyssines sous les Sultans Mamlouks, p. 119. (Le Caire, 1938).

وكذلك القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٢٣

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٦١٦

(٤) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, Tome 1. p.p. 288-290.

ناحية وإلى يؤانس السابع بطريرك الأقباط في مصر (١٢٧١ — ١٢٩٣) من ناحية أخرى . ففى الرسالة الأولى يذكر ملك الحبشة لسلطان مصر أنه — أى ملك الحبشة — ليس مثل والده (يكونو أملاك) وأنه يحفظ المسلمين في مملكته ، وأن المطران السرياني الذى اضطروا إلى استحضاره « أتلف البلاد في زمان والدى ، وهو من أعداء المسلمين » . ثم يختتم ملك الحبشة رسالته بالإلحاح في إرسال مطران من مصر ؛ ويتعهد بإرسال العوائد — من هدايا وأحوال — « التى جرت العادة بها عند طلب المطران »[١] . وثمة عبارة لطيفة جاءت في رسالة ملك الحبشة إلى السلطان قلاون هى « السلام يامنصور (السلطان المنصور قلاون) . اسمع يا سلطان مصر — نصرك الله — اعطى البطرك الدستور يبعث لى أسقفاً ؛ فنحن وهم أمتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم . والرسم الذى لك والتقدمة أنا أعطيك إن سيرت لى أسقفاً . وإذا سيرته أنا أتقصى منه عن رسمك ، ومهما قلت فعلته . . . »[٢]

أما رسالة ملك الحبشة إلى بطريرك الأقباط في مصر ، فهى تكشف لنا الكثير عن العلاقة بين الكنيسة الحبشية والكنيسة القبطية ، وعن نظرة الأحباش إلى كنيسة مارمرقس وحرصهم على دوام الارتباط بها وإلحاحهم في التبعية لها ، ورفضهم مطراناً من غير المصريين . ونص هذه الرسالة الخطيرة — كما أوردها ابن الظاهر — هى : -

« أتوسل للبطرك — بطرك الاسكندرية — أبو يحنس (يؤانس السابع) ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص ، وأنذر يانون يكون عليك : اسمع كلامى ، واقض حاجتى ، وابعث لى مطراناً جيد صالح ، يعلمنى كل شى جيد ، ويكون ما ضرب داود عليه السلام المثل في الزبور من شأننا . وقال خلّوا رجالاً جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد . وقال في وصيته : لاتخلى يابنى خروفك يأكله الذئب . وهؤلاء

---

(١) محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، ص ١٧٠

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٣

السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم . ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم . وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك . والساعة لاتخرب مدينتك، وتسير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح . واذكر مرقص لاتخلينا بخطيئتنا . إن كنت وحدك تقدر تسير إلينا مطراناً فسيره ، وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان . وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك . وتخلى هؤلاء السريان في بلادنا ، ونخرجهم إذا قلت : اطردوهم . وإن قلت : خليهم ، خليناهم . وأنت أنكرت علينا بسببهم ، فاغفر لنا هذا الذنب، حتى لاتبقى علينا خطيئة . واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا في الحياة والموت . . .[1] »

وكان أن رق قلب السلطان منصور قلاون لموقف ملك الحبشة ، فوافق على إرسال مطران إليه ، وعندئذ طردت الحبشة المطران السرياني ومن معه من الرهبان الدومينكان ، وتمت مصادرة جميع ممتلكاتهم[2] . وقد أدى ذلك إلى تحسن العلاقات بين مصر والحبشة ، فيذكر أبو المحاسن أن ملك الحبشة أرسل هداياه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣١٠ م (٧١٠ هـ)[3] ويؤكد هذه الحقيقة المقريزى في ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاون[4] . أما ابن إياس فيذكر أن الهدية التى أرسلها ملك الحبشة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) بلغت قيمتها مائة ألف دينار أو أكثر ، « حتى عدت من النوادر »[5] ولا شك في أن هذه الإشارات في مختلف المراجع المعاصرة تدل على حسن العلاقة بين مصر والحبشة طوال عصر الناصر

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٢ ــ ١٧٣ ، ويلاحظ أن مؤلف هذا الكتاب ، وهو محيى الدين بن عبد الظاهر ، تولى وظيفة صاحب ديوان الانشاء فى عهود السلاطين الظاهر بيبرس والمنصور قلاون والأشرف خليل ، مما جعله محيطا بما لم يحط به غيره من الكتاب من أسرار عصره ومطلعا بحكم منصبه على جميع الرسائل المتبادلة بين سلاطين مصر السابق ذكرهم من ناحية وملوك وأمراء الدول المعاصرة من ناحية أخرى .

(٢) Coulbeaux : op. cit., Tome 1, p. 293.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٧١٠

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٢ ص ٥٣٣

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

محمد بن قلاون ، الذى حكم أكثر من اثنتين وثلاثين سنة . ثم إن هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين استمرت حتى قيام سلطنة المماليك البرجية ، فقدمت رسل ملك الحبشة إلى مصر في عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ١٣٨٢ م (٧٨٤هـ) « ومعهم هدية على أحد وعشرون جملاً ، فيها من طرائف بلادهم من جملتها قدور ملئت حمصاً صنع من ذهب ، إذا رآه الشخص يظنه حمصاً ؛ وغير ذلك »[١]

وهكذا استمر رسل الحبشة يفدون على القاهرة ، وخاصة عندما كان يخلو منصب المطرانية بالحبشة . وهناك إشارات في المراجع المعاصرة إلى أن رسل ملوك الحبشة وفدوا على مصر في سلطنة كل من برسباى وجقمق وقايتباى ، وكانوا يحضرون معهم هدايا ضخمة للسلاطين[٢] . وفي الوقت نفسه كان سلاطين المماليك يكرمون رسل الحبشة طالما أنه لايوجد ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين البلدين . وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على أن لايسمحوا لأولئك الرسل بتجاوز قدرهم في حضرة السلاطين . من ذلك ما يرويه ابن إياس من وصول قاصد ملك الحبشة إلى السلطان الأشرف قايتباى سنة ١٤٨١ م (٨٨٦ هـ) « فأوكب له السلطان بالحوش موكباً حافلاً ، من غير شاش ولا قماش . فجلس السلطان على الدكة وحوله الأمراء . فلما دخل قاصد ملك الحبشة على السلطان كان بصحبته جماعة من الحبشة ومعهم كراسي يجلسون عليها بحضرة السلطان ، فمنعوهم الرءوس النوبة من ذلك . ثم إن السلطان أكرم القاصد وأخلع عليه ، وأنزله في مكان عُد له ، ورتب له ما يكفيه في كل يوم إلى أن عاد إلى بلاده . وحضر صحبته تقدمه (هدية) حافلة للسلطان ، فأكرم ذلك القاصد جداً . وسبب حضوره أنه جاء يسأل البطرك بأن يولى شخصاً يكون نائباً عنه ببلادهم[٣] » .

على أنه ثمة سبب آخر أوجب تردد الأحباش على مصر في العصور الوسطى، هو اتجاههم لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين والقيام بالحج.

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٤٦
المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٤٧١ (مخطوط) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور .
(٣) المرجع السابق ، ج ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ (نشر محمد مصطفى) .

وكانوا في طريقهم من بلادهم إلى القدس يفضلون اجتياز الطريق البرى عبر مصر بحذاء ساحل البحر الاحمر ، وذلك خوفاً من البحر وغائلته . وقد ذكر بعض الكتاب في أوائل القرن السادس عشر أنه شاهد بنفسه قافلة كبيرة من الحجاج الأحباش تتألف من نحو ثلثمائة حبشى يخترقون الطريق البرى السابق الذكر في طريقهم إلى القدس[١] . وكان المفروض أن يدفع هؤلاء الحجاج ضريبة الخفر، وهى الضريبة التى يدفعها الحجاج المسيحيون أثناء مرورهم في البلاد الإسلامية ، مقابل حراسة أرواحهم وأموالهم . ولكن صلاح الدين الأيوبي استن سنة طيبة عقب استيلائه على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، هى إعفاء الحجاج المسيحيين من أية ضريبة يدفعونها مقابل زيارة أماكنهم المقدسة . وقد تمسك الأحباش بذلك الحق منذ صلاح الدين، فطالبوا خلفاءه من سلاطين الأيوبيين ، ثم سلاطين المماليك من بعدهم بإعفائهم من أى رسم مقابل السماح لهم بالتردد على الأماكن المقدسة في فلسطين. وهناك نص على جانب خطير من الأهمية ، اكتشف مكتوباً على باب من أبواب كنيسة القيامة في بيت المقدس ، ويرجع إلى سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) ؛ وهو عبارة عن مرسوم أصدره السلطان الأشرف الغورى بإعفاء الرهبان والراهبات من أى رسم يدفعونه مقابل السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة في القدس . وقد ورد في هذا المرسوم ذكر الحجاج الأحباش (الحبوش) بالذات ؛ فجاء فيه ما نصه : « المرسوم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطاني، الملكى ، الأشرفي ، السيفى . . . أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات ، الملكانيين واليعاقبة ، بموجب ولا بخفر ولا بظلم ، عند دخولهم قمامة القدس الشريف[٢] ، أسوة رهبان الكرج والحبوش . . . الوارد من الرهبان والرهبانيات المذكورين في البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس ؛ مستمر حكم ذلك من تقادم السنين، من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة، ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك. »[٣].

---

(١) Alvarez : Narrative of Portugeuse Embassy to Abyssinia (1520 - 1527), p.p. 243-244.

(٢) أى كنيسة القيامة .

(٣) Van Berchem : Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum (Syrie du Sud). p.p. 388-391.

والواقع إن أعداد الحجاج الأحباش الذين دأبوا على المرور بمصر في طريقهم إلى الأراضى المقدسة كانت كبيرة . وهؤلاء كان يحرص السلاطين دائماً على حمايتهم من أذى العامة وتعرضهم لهم ؛ وبخاصة في عصور اشتهرت بالحروب الصليبية وطفحت بروح العداء الدينى . ونستطيع أن نخرج بصورة واضحة عن أعداد الحجاج الأحباش من ناحية ، وما كانوا يصادفونه في طريقهم عبر مصر من ناحية ثانية ، ثم حرص الحكام على حمايتهم من العامة من ناحية ثالثة . . . من الوصف الذى أورده المؤرخ إياس في حوادث سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) — أى زمن السلطان الغورى — قال ابن إياس ما نصه :

« وفي يوم الخميس خامس عشرينه ، حضر قاصد من عند ملك الحبشة ... فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولا قماش — كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ، ونصب على رأسه السحابة الزركش ، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم في منزلته . ثم طلع القاصد من الصليبة ، وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط[1] ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر ، ومنهم من في أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفي أيديهم أساور ذهب . وأما القاصد الكبير . . . فكان على رأسه خوذه مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب ومنهم بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة ، وعليه شاياه حرير ملون ، وعلى بقية أعيان أمراء الحبشة شايات حرير ملون ، وعلى رءوسهم شدود حرير . . . فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان ، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها . وكان صحبتهم البترك الكبير ، وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب . واصطفت

---

(١) لبط به الأرض ، ضرب . ولبط به سقط وصرع . وتلبط فى أمره أى تحير واختلط عليه الأمر . والمقصود باللفظ فى المتن أن بقيتهم خليط من عامة الناس . (القاموس المحيط) .

جميع النصارى الذين في مصر للفرجة عليهم ، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة . فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج ، والبترك ماش قدامهم . . فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبّل الأرض ، فلما وصل إلى أوائل البساط قبّل الأرض ومن معه من من أعيان الحبشة . ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس ، والبقية لم يدخلوا . فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة . ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل إنه في ضمن غلاف من الفضة ، وقيل من الذهب . فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان ، وأن قصادنا أتوا إلى مصر اليزوروا (كنيسة) القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعوهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة . فرسم لهم السلطان بأن يقيموا في ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا . وأرسل لهم خياماً ضربت لهم من داخل الميدان . ووكّل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام . فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من الرءوس والنواب ، فوصلوهم إلى الميدان خوفاً عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود . . . » [1]

وإذا كانت جموع الأحباش القاصدة للحج وزيارة الأماكن المقدسة على هذه الدرجة من الكثرة ووفرة العدد ؛ فإنه كان لابد للأحباش من مقر في بيت المقدس يكون بمثابة مركز لهم ، ونقطة تجمع يلتفون حولها في تلك البلاد البعيدة عن أرضهم . وكان ذلك المقر للحجاج الأحباش هو دير في بيت المقدس نسب إليهم ، وله مقدم يعينه ملك الحبشة . ويقال إن صلاح الدين الأيوبي شمل ذلك الدير ورهبانه بعطفه ورعايته[2] . وقد دأب ملوك الحبشة على إرسال الأموال والهدايا إلى ذلك الدير ، طالبين من رهبانه الدعاء لهم . من ذلك الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة يجبأصيون (صهيون) على

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ — ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) Budge : Hist. of Ethiopia, vol. 1, p.p. 286-287.

عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى رهبان دير الأحباش في القدس الشريف ، ونصها : « السلام عليكم يارهبان الحبوش ، الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة ؛ وثيابي وهو زناري[1] الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان : ماهو كل يوم ، إلا من يوم العيد إلى يوم العيد[2] ولا يلبسه إلا القسبس الذى يعمل القربان . فعرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم ، واقبلوا ما سيرته فهو في سرير سلطاني وزناري . ولا تنسوني كل يوم . . »[3] وعلى الرغم من أن مقدم دير الأحباش بالقدس لم تربطه رابطة التبعية ، بسلاطين مصر ، إلا أنه لابد — في نظرنا — وأن هذا الدير كان محوراً لاتصالات ودية بين ملوك الحبشة وحكام مصر في العصور الوسطى ، بحكم سيطرة هؤلاء الحكام السياسية على بيت المقدس طوال شطر كبير من تلك العصور ، وخاصة في عصر سلاطين المماليك .

على أنه لا ينبغى بأى حال أن نعتقد في استمرار العلاقات الطيبة بين سلاطين مصر وملوك الحبشة ، وخاصة في عصر الحروب الصليبية عندما تحكم العداء بين المسلمين والمسيحيين ، وهو العداء الذى كثيراً ما انعكست صورته واضحة في العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر قوة إسلامية في الشرق الأوسط حتى أواخر القرن الخامس عشر ، وبين غيرها من الدول المسيحية ، المجاورة وغير المجاورة . وثمة حقيقة لا نستطيع أن ننكرها ، هى أن المسيحيين في مصر تعرضوا في بعض الأحيان في العصور الوسطى لشيء من الإضطهاد ، وخاصة في عصر الحروب الصليبية . وكان سبب هذا الإضطهاد رغبة حكام مصر — وبصفة خاصة سلاطين المماليك —

---

(١) زنّار ، جمعه زنانير ، حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة فى العصور الوسطى . انظر :
Dozy : Dict. Vet. Ar. :

(٢) أى اشترط عليهم ان لا يلبس هذا الزنار الا فى يوم العيد فقط من كل عام .

(٣) محيى الدين بن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٣

في الظهور بمظهر حماة الدين لتدعيم مركزهم في نظر المسلمين[١] . وهنا نجد ملوك الحبشة يفتحون أبواب بلادهم للأقباط النازحين من مصر فراراً من الإضطهاد . وقد حدث أن هاجر كثير من القبط من مصر إلى الحبشة في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ، ثم في عهد السلطان الكامل الأيوبي عندما حاصر الصليبيون دمياط سنة ١٢١٩ ، فرحب بهم ملوك الحبشة وأكرموهم[٢].

على أنه كان من العسير على ملوك الدول المسيحية أن يسكتوا عن ذلك الوضع ، فنسمع عن ملوك الحبشة أنهم تدخلوا أكثر من مرة عند سلاطين مصر وحكامها لتخفيف حدة المتاعب التي كان يعانيها الأقباط بين فينة وأخرى . ولم يحجم ملوك الحبشة عن تهديد سلاطين المماليك بالإنتقام من المسلمين في بلادهم إذا استمرت الأمور على أوضاعها . من ذلك ما يرويه النويرى في حوادث سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) من أن ملك الحبشة أرسل رسلا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون يطلب منه « إعادة ما خرب من كنائس النصارى ، ومعاملتهم بالإكرام والإحترام ، ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين ، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر . فسخر السلطان منه ورد رسله ! »[٣] ويكرر المقريزى خبر وصول رسول ملك الحبشة بعد ذلك سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) لنفس السبب السابق[٤] .

ويبدو أن عدم استجابة سلاطين مصر لرجاء ملوك الحبشة وسخريتهم منهم — كما أشار المقريزى في النص السابق — جعل ملوك الحبشة ينفذون تهديداتهم على نطاق واسع . من ذلك أن ملك الحبشة جبرة مصقل — وإسمه الأصلى عمدة صيون (صهيون) — الذى امتد حكمه من سنة ١٣١٢ حتى سنة ١٣٤٢ م (٧١٢ — ٧٤٣ هـ) تطرف في اضطهاد المسلمين في بلاده ،

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٤٠ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ، ص ٤٤ — ٧٥

(٢) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie, Tome 1, p. 260.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣١ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

(٤) المقريزى : السلوك ، ٢ ق ٢ ص ٤١٠ . وانظر أيضا حاشية ٥ فى نفس الصفحة .

وشن ضدهم حروباً كثيرة[١] . على أن المسلمين في الحبشة لم يرضوا عن اضطهاد ملوك الحبشة لهم ، بل أعلنوا الثورة والحرب أكثر من مرة . ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه حدث سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) أن قام رجل بالحبشة يدعى أبو عبد الله محمد يدعو إلى الإسلام « فاجتمع عليه نحو المائتى ألف رجل وحارب الأمحرى (ملك الحبشة) في هذه السنة حروباً كثيرة[٢] ». ومن ناحية أخرى فإن المسلمين بالحبشة ظلوا دائماً يعتزون بأنفسهم ، ويأنفون من الخضوع لملك الحبشة المسيحى ، ويحاولون التحلل من تبعيتهم له ، مما أثار مصادمات عنيفة بين الطرفين . من ذلك ما يرويه المقريزى في سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) من أن طائفة الزيلع[٣] التى اعتادت أن تؤدى أموالاً في كل سنة إلى ملك الحبشة تحملها إليه « قام فيها عبد صالح ومنعهم من الحمل ، وشنع عليهم اعطاءهم الجزية — وهم مسلمون — لنصراني ، ورد رسول ملك الحبشة . فشق ذلك على ملك الحبشة ، وخرج بعساكره ليقتل الزيلع عن آخرهم ...[٤] » .

والواقع أنه كان من العسير أن تظل الحبشة بعيدة عن تيار الحركة الصليبية ، وهى الدولة المسيحية الكبرى التى تقع عند مدخل العالم الإسلامى من جهة الجنوب . والأخبار المقتضبة التى ذكرها المقريزى عن حدوث صدام بين مسلمى الحبشة وملوك الحبشة المسيحيين ، إنما كانت في حقيقة

---

(١) Budge : Hist. of Abyssinia, vol. 1, p. 288 et seq.

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩١٦

(٣) كانت الزيلع احدى الامارات الاسلامية التى تتبع ملوك الحبشة فى العصور الوسطى . انظر :

المقريزى : الالمام بأخبار من فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام ص ٦—٧ ، محمد مصطفى زيادة : حاشية ٢ ص ٨٦١ ج ٢ فى كتاب السلوك للمقريزى .

Trimingham : Islam in Ethiopia, p.p. 67-68.

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٣ ص ٨٦١ . والمقصود به العبد الصالح الامام صالح . وهو ابن شريف من أشراف مكة . أما ملك الحبشة المقصود فى المتن فهو أمدا سيف أرعد الذى حكم من سنة ١٣٤٤ حتى سنة ١٣٧٧ . انظر :

Budge : A Hist. of Ethiopia, vol. 1, p.p. 298-299 &
Trimingham : Islam in Ethiopia, p.p. 72-73.

أمرها مجرد إشارات إلى حروب طاحنة عنيفة تزعمها ملك الحبشة عمد صيون (صهيون) ومن ورائه الجانب المسيحى في الحبشة ؛ وفي الجانب الآخر حق الدين بن عمر حاكم أوفات ، ثم أخوه صبر الدين بن عمر ، ومن خلفهما بقية القوى الإسلامية بالحبشة(١) . وهذه الحرب الطاحنة التى استمرت سنوات طويلة كانت في روحها وطابعها حرباً صليبية ، ولا نستبعد مطلقاً أن تكون صدى من أصداء الروح الصليبية التى سادت حوض البحر المتوسط في ذلك الدور . وهنا نشير إلى عبارة ذكرها القلقشندى عند كلامه عن الممالك الإسلامية بالحبشة ، إذ يقول ما نصه « وتسلط الحطى سلطان أمحرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة للدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين (٢) » .

وعندما اشتدت وطأة ملك الحبشة على المسلمين في بلاده ، سعى الفقيه عبد الله الزيلعى رئيس وفد أوفات لدى السلطان الناصر محمد بن قلاون ليتدخل لمساعدة مسلمى الحبشة ، فوسط السلطان بطريرك الأرثوذكس بالأسكندرية في ذلك الأمر(٣) . ويقال إن بطريرك الإسكندرية أرسل رسالة إلى ملك الحبشة يطلب منه ترك محاربة المسلمين في بلاده ، ولكن تلك الجهود لم تثمر ، فاستمرت الحروب طويلاً بين المسلمين في الحبشة وملكها عمد صيون(٤) . وقد فسر القلقشندى هذه الوساطة في ضوء الرغبة في التخفيف عن مسلمى الحبشة ، فقال إن الفقيه عبد الله الزيلعى انتهز فرصة وصول رسول ملك الحبشة إلى مصر ليسعى لدى السلطان أن يطلب من البطريرك الكتابة إلى ملك الحبشة « بكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم . وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن

---

(١) Bruce : Travels to discover the Source of the Nile, vol. 3, p.p. 52-63 & Coulbeaux : op. cit. Tome 2, p. 322.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٢

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ترجمة Demombynés (Tome 1, p. 2, N. I.).

(٤) Perruchon : Geurres d'Amda Sy p.p. 346-362. (J. A. S. & serie, Tome 14 ; Par 1889).

نفسه كتاباً بليغاً شافياً ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال ، وأنه حرم هذا على من يفعله[١] » .

وهكذا استمر عدوان ملك الحبشة على المسلمين في بلاده ، الأمر الذى جعل السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢ — ١٣٨٨ م) يكرر الطلب في أوائل عهده — إما عن طريق رسله المباشرين أو عن طريق بطريرك الإسكندرية — على ملك الحبشة للكف عن التعرض للمسلمين في بلاده[٢] . ويبدو أن ثمة اتصالات في ذلك الدور قد تمت بين القوى المسيحية في أوربا ، وعلى رأسها البابوية من ناحية ، وملوك الحبشة المسيحيين من ناحية أخرى لوضع خطة مشتركة للإنتقام من المسلمين ، وتطويق بلادهم عن طريق الشمال والجنوب . ذلك أنه منذ استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، والغرب الأوربي المسيحى غير راض مطلقاً عن تلك النتيجة التى انتهت إليها الحروب الصليبية في بلاد الشام . وكان أن ظهر عديد من الدعاة وأصحاب المشاريع الصليبية في ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، يحاول كل منهم أن يضع مشروعاً يستهدف طعن المسلمين في مقتلهم . وليس هذا مجال تتبع هذه المشاريع الصليبية[٣] ؛ ولكن تكفى الإشارة إلى أن جزءاً كبيراً منها اتجه نحو حرمان دولة المماليك من المصدر الأساسى لقوتها وغناها وهو التجارة ، الأمر الذى يتطلب البحث عن حليف للصليبيين في جنوب البحر الأحمر لإغلاق مدخل ذلك البحر في وجه التجارة المماليكية من ناحية الجنوب ؛ في الوقت الذى أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم فيها على التجار الإيطاليين وغيرهم التجارة مع سلطنة المماليك والتردد بسفنهم على موانى تلك السلطنة المطلة على البحر المتوسط مثل دمياط والإسكندرية وطرابلس[٤].

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٣

(٢) المرجع السابق ، ج ٥ ص ٣٣٣

(٣) للوقوف على هذه المشاريع ، انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١١٩٢ وما بعدها .

(٤) Kammerer : Le Mer Rouge, Tome 1, partie 2, p. 151 &
Heyd : Hist. du Commerce du Levant, Tome 2, p. 26.

ولم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية ليحالفها الصليبيون ويعتمدون على مساعدتها في إغلاق المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، ومنع تجارة الشرق الأقصى من السير فيه إلى موانى مصر الشرقية . لذلك حرصت البابوية — منذ القرن الرابع عشر بالذات — على تقوية صلاتها بالحبشة ، فقام وليم آدم — وهو راهب دومينكاني اختاره البابا نيقولا الرابع سنة ١٣٠٥ للتبشير في الشرق — برحلة طويلة ، زار فيها دولة مغول فارس ، ومنها انتقل إلى عدن ، فشرق أفريقيا والحبشة ، ثم عاد إلى أوربا سنة ١٣١٦[١] . وفي هذه السنة الأخيرة — سنة ١٣١٦ — أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون سفارة من الدومينكان إلى الحبشة ، ولكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك في مصر . كذلك كان مصير سفارة أخرى من الرهبان الدومينكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة سنة ١٣٣٨[٢] .

وإذا كانت بعض السفارات المتبادلة بين الغرب المسيحى من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى قد وقعت في قبضة سلاطين المماليك بمصر ، فإن هذا في حد ذاته جاء دليلاً على أن ثمة اتصالات دائمة جرت بين الطرفين في الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية لتطويق دولة المماليك من الشمال والجنوب . والواقع إنه كان من الصعب أن يظل ملوك الحبشة بعيدين عن تيار الحركة الصليبية ، وهم الذين اعتنقوا المسيحية منذ وقت مبكر ، وأثبتوا في كل مناسبة أنهم حماة المسيحية في ذلك الركن الشرقي من أركان القارة الإفريقية . ولو كانت الحبشة قريبة من قلب العالم الإسلامى ، أو لو كان بينها وبين مصر حدود مباشرة — مثل النوبة — لصار لها دور بارز أكثر وضوحاً في الحركة الصليبية . ولكن الملاحظ أن بعد الحبشة نسبياً عن المسرح الرئيسى للحركة الصليبية جعل دورها يبدو ثانوياً في تلك الحركة ، وإن كان لا ينبغى أن نقلل مطلقاً من شأن ذلك الدور في التاريخ[٣] .

---

(١) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, p.p. 161-172.

(٢) Kammerer : op. cit., Tome 1, p. 294.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

ومن المعروف أن الحركة الصليبية تمخضت في القرن الثاني عشر عن مولد مملكة جديدة في الشرق الأدني ، هى مملكة آل لوزجنان في جزيرة قبرص . ويعنينا في بحثنا هذا من أمر هذه المملكة أن ملوكها في القرن الرابع عشر حملوا على عاتقهم عبء النهوض بالحرب الصليبية بعد طرد الصليبيين تماماً من أرض الشام ، فدأبوا على مهاجمة شواطىء المسلمين في آسيا الصغرى والشام ومصر[١] . ومن الحملات الصليبية الجريئة التى قام بها ملوك قبرص على بلاد المسلمين حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وهى الحملة التى يؤكد لابروكيير أن الإعداد لها تم على أساس قيام الصليبيين بزعامة بطرس لوزجنان بمهاجمة مصر من ناحية الشمال ، في الوقت الذى يهاجم ملك الحبشة مصر من ناحية الجنوب ، وبذلك تقع مصر — وهى مركز المقاومة الإسلامية — بين شقى الرحى . وتتصف رواية لابروكيير بنوع من المبالغة المألوفة في كتابات العصور الوسطى — شرقاً وغرباً — فيقول إن ملك الحبشة أعد جيشاً قوامه ثلاثة ملايين مقاتل ، واتجه على رأسه قاصداً حدود مصر الجنوبية ، لولا أن جاءته الأنباء بانسحاب بطرس من الإسكندرية بعد تدميرها ، وعندئذ قرر ملك الحبشة العودة إلى بلاده بعد أن خسر عدداً كبيراً من رجاله بسبب وعورة الطريق وصعوبة العملية الحربية التى شرع فيها[٢] .

على أن عجز ملوك الحبشة عن التعبير عن حماستهم الصليبية عن طريق صدام مباشر مع مصر ، جعلهم يسلكون طريقاً آخر ، هو النيل من الإمارات الإسلامية التى كانت تسيطر على الثغور البحرية ، وبخاصة ثغر زيلع . وكان أن ظهر بين ملوك الحبشة في أوائل القرن الخامس عشر الملك اسحق بن داود (١٤١٢ — ١٤٢٧ م ، ٨١٥ — ٨٣٠ م) ، الذى دخل في صراع مرير مع إمارة عدل الإسلامية ، وهى الإمارة المسيطرة على ميناء زيلع ؛ حتى حلت الهزيمة بأميرها سعد الدين محمد بن أحمد ، فخر قتيلاً بعد جهاد طويل ، وعندئذ استولى الأحباش على زيلع سنة ١٤١٤ م (٨١٧ هـ)[٣] . وعلى الرغم

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٥٤—٥٦

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, Tome 1, p.p. 294-304.

(٣) Cerulli : La Storia Della Dinastia Dei Walasma Sovreni Dell Ifat ; p. 41. (Documenti Arabi — Roma, 1930).

من الجهود المتواصلة التى بذلها أبناء سعد الدين لاسترداد ميناء زيلع ، وهى الجهود التى أيدهم فيها ملك اليمن الناصر أحمد ، إلا أن الأحباش نجحوا في الإحتفاظ بذلك الثغر مما هيأ لهم نافذة طيبة يطلون منها على البحر الأحمر .

أما سلطنة المماليك في مصر ، فقد ردت عندئذ على سياسة ملوك الحبشة باضطهاد المسيحيين في مصر ، وفصل من كان يعمل منهم في الديوان السلطاني أو يشغل وظيفة رسمية في الدولة ؛ ففر بعضهم إلى بلاد الحبشة ، وعلى رأسهم فخر الدولة الكاتب — وهو كاتب قبطى — فرحب به اسحق ملك الحبشة وأدخله في خدمته . ولم يلبث فخر الدولة أن قام بتنظيم ديوان لملك الحبشة على نمط الديوان السلطاني بالقاهرة ، ووضع قواعد جديدة لجباية الأموال والضرائب . وبفضل هذه النظم التى انتقلت من مصر ، صار ملك الحبشة — على حد قول المقريزى — « ملكاً له سلطان وديوان ، بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجاً ، لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون . فانضبطت عنده الأمور ، وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة ، بعد ما كان (أبوه) داود بن يوسف بن أرعد يخرج عرياناً وقد عصب رأسه بعصابة خضراء ، فصار اسحق يمر في موكب جليل ... ! ! [١] » .

وجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر في ذلك الدور على فرار بعض الأقباط من مصر إلى الحبشة ، بل لجأ بعض أمراء المماليك المسلمين أيضاً إلى بلاد الحبشة ، ربما لخلافات داخلية بينهم وبين السلطان ، وخوفهم على أنفسهم من غائلته . وعلى رأس هؤلاء تذكر المراجع الأمير ألطنبغا حاكم قوص في عهد السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١) . وقد قام هذا الأمير بتدريب الأحباش على استخدام النار الإغريقية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف ، بعد أن كان الأحباش لا يعرفون غير استخدام الحراب[٢] . كذلك يشير المقريزى إلى أحد المماليك الزردكاشية[٣]

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٤

(٢) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٣ ورقة ٣٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٦٤ — ٦٦٥ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) الزردكاش ، هو الصانع الذى يعمل داخل السلاح خاناه فى صنع السلاح واصلاحه وتجديده (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٢) .

— ولم يذكر اسمه — فر من مصر في ذلك الدور ، فعهد إليه اسحق ملك الحبشة بعمل « زردخانات (خزائن للسلاح) عظيمة ، وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها ... »[١] .

وهكذا استفادت الحبشة في الربع الأول من القرن الخامس عشر من خبرة المصريين وتقدمهم الحضارى — وخاصة في النواحى الحربية والإدارية — مما ساعد مملكة الحبشة على التطور والتقدم . وقد استغل اسحق ملك الحبشة تلك الطاقة التى أتيحت له في التنكيل بالمسلمين في بلاده ، فأنزل بهم أبشع ألوان الإضطهاد والإنتقام . وما كاد اسحق ملك الحبشة يعلم بأن سلطان مصر الأشرف برسباى (١٤٢٢ — ١٤٣٨) نجح في غزو جزيرة قبرص وأسر ملكها جانوس لوزجنان سنة ١٤٢٦ ، حتى استشاط غضباً وأرسل إلى زعماء القوى المسيحية في غرب أوربا يدعوهم إلى الإنتقام فوراً من سلطنة المماليك ، مبدياً استعداده للهجوم على مصر براً من ناحية الجنوب ، في الوقت الذى تقوم الجيوش الأوربية بغزوها من ناحية الشمال . ويتردد في المراجع — في ذلك الدور — اسم تاجر مسلم ، نرجح أن يكون شيعياً ، هو نور الدين على بن محمد بن يوسف التبريزى — الفارسى الأصل — نزح إلى بلاد الحبشة ، واستقر فيها حيث ازدهرت تجارته وصار موضع ثقة اسحق ملك الحبشة . ويقول أبو المحاسن أن على التبريزى قام بشراء كل ما احتاج إليه بلاط ملك الحبشة من نفائس مصر ، فضلاً عن أنه اشترى للملك الحبشة ما يحتاج إليه جيشه من أسلحة وخيول[٢] . ولم يجد ملك الحبشة أفضل من التبريزى رسولا يوفده إلى ملوك أوربا لوضع الخطة المشتركة لغزو مصر . وكان أن ترك التبريزى بلاد الحبشة إلى أوربا ماراً بمصر ، دون أن ينكشف أمره ، وهناك أبلغ ملوك أوربا رسالة ملك الحبشة ، فأقروا خطته ، بل إنهم شرعوا في صنع الزى الذى يرتديه المحاربون الصليبيون في هجومهم على مصر . وعند عودة التبريزى إلى الحبشة عن طريق مصر ، وشى به أحد

---

(١) المقريزى : الالمام ، ص ٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٦٣٧ — ٦٣٨ (طبعة كاليفورنيا) .

رفاقه فقبض عليه ، ولم يقبل منه مال مقابل إطلاق سراحه ، وبادر السلطان بتشهيره ثم تسميره [١].

وتؤيد المصادر الأوربية ما جاء في المراجع العربية عن الإتصالات بين ملوك الحبشة وملوك غرب أوربا في ذلك الدور ، إذ من الثابت أن هناك سفارة حبشية — من قبل الملك اسحق — وصلت فعلاً إلى بلاط ألفونس الخامس ملك أرغونة (١٤١٦ — ١٤٥٨) الذى تعهد بإعداد حملة بحرية تدهم مصر من ناحية الشمال ، في الوقت الذى يزحف عليها ملك الحبشة على رأس جيوشه من ناحية الجنوب . واختار الطرفان — الحبشة وأرغونة — أن يدعما هذه الإتفاقية برباط المصاهرة ، فيتزوج ملك الحبشة بأميرة أرغونية ، ويتزوج ولى عهد أرغونة بأميرة حبشية . ولهذا الغرض أرسل ملك أرغونة سفارة من قبله — رداً على سفارة ملك الحبشة — وصدرت التعليمات لهذه السفارة بأن تمر بمصر للوقوف على مدى قوتها وتحصيناتها وأوضاعها الحربية تمهيداً لتنفيذ مخطط الغزو[٢] .

ويبدو أن ملوك الحبشة في ذلك الدور وسعوا دائرة نشاطهم السياسى مع القوى المسيحية في أوربا ، بحيث أن ملك الحبشة لم يقف عند حد الإتصال بملك أرغونة ، وإنما اتصل أيضاً بملك فرنسا شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١) للمشاركة في خطة غزو مصر . وعلى الرغم من انشغال فرنسا وملكها بحرب المائة عام ضد انجلترا (١٣٣٧ — ١٤٥٣)[٣] ، إلا أن شارل السابع أبدى استعداده للمشاركة في الحرب الصليبية ضد مصر ، وأرسل سفارة إلى الحبشة لوضع الترتيبات الخاصة بالغزو . وقد مرت هذه السفارة بمصر ، وإن كان لم يصل منها سليماً إلى الحبشة سوى شخص اسمه بطرس . ولا توجد

---

(١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ورقة ٢٥٣ (مخطوط) ، المرجع السابق ٦ ص ٦٣٧ — ٦٤٠ والتسمير هو دق أطراف الشخص بمسامير غلاظ فى لوح من الخشب حتى يموت .

(٢) Wiet : Relations Egypto — Abyssines, p.p. 128-129.

(٣) عن هذه الحرب انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى الجزء الأول ، الباب العاشر (الطبعة الرابعة) .

لدينا معلومات تاريخية واضحة عن هذه الإتصالات ، وإن كان لابروكيير قد حكى أنه صادف ذلك الشخص المسمى بطرس في القسطنطينية سنة ١٤٣١ ، ووصفه بأنه مواطن من مدينة نابلى ، وأنه كان يقوم بجمع الصناع اللازمين لبناء السفن المطلوبة للغزو المنتظر(١) . وإذا كانت حرب المائة عام — على ما يبدو — قد استأثرت بجهود ملك فرنسا وحالت دونه والمضى في اتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذ عملية القيام بحملة صليبية ضد مصر ، فإن ذلك لا ينفى وجود النية لتنفيذ ذلك المشروع . من ذلك التقرير الذى كتبه حنا دى لاستيك — مقدم هيئة الاسبتارية وبعث به إلى ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨) شارحاً له الضربات التى كالها ملك الحبشة للمسلمين في بلاده ، وبأن ملك الحبشة قد وجه إنذاراً نهائياً إلى سلطان مصر بأنه إن لم يحسن معاملة المسيحيين في بلاده ، فإنه — أى ملك الحبشة — سيقطع مجرى النيل عن مصر(٢) .

وهنا نسجل ملاحظتين : الأولى هى أن القوى الصليبية في شرق البحر المتوسط التى لم تستطع مدافعة سلاطين المماليك في مصر والتى تعرضت لضربات قوية من سلطنة المماليك في القرن الخامس عشر بالذات ، هذه القوى وجدت في موقف ملوك الحبشة شفاء لنفوسها وتنفيساً عن رغبة مكبوتة في الأخذ بالثأر . يدل على ذلك أن قبرص التى غزاها المماليك سنة ١٤٢٦ ورودس التى تعرضت هى الأخرى لغزو المماليك سنة ١٤٤٤ — والجزيرتان كانت بهما قوتان من بقايا القوى الصليبية بالشرق الأدني هما دولة آل لوزجنان بقبرص والفرسان الإسبتارية برودس — أقول إن قبرص ورودس دخلتا دائرة الإتصالات بين ملوك الحبشة من ناحية وملوك غرب أوربا من ناحية أخرى ، بقصد ضرب دولة المماليك ضربة قاصمة . أما الملاحظة الثانية فهى أن اتساع دائرة الإتصالات بين الحبشة والقوى المسيحية في جنوب أوربا وغربها بهدف توحيد الجهود والقيام بعمل مشترك ضد سلطنة المماليك إنما يصور لنا الإتجاه الجديد الذى سلكته الحركة الصليبية في أواخر العصور

---

(١) Wiet : op. cit., p. 129.

(٢) Atiya : op. cit., p.p. 192-196.

الوسطى — بعد طرد الصليبيين من الشام في نهاية القرن الثالث عشر — وهو اتجاه اتخذ أساليب عديدة جديدة ، تختلف — كما يبدو لنا — كما وكيفاً عن الأسلوب التقليدى القديم للحركة الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . وهذا الأسلوب الجديد امتزجت فيه عناصر الحرب الإقتصادية والحصار الإقتصادى من ناحية ، بالرغبة في مهاجمة المسلمين أينما وجدوا — على شوطىء آسيا الصغرى أو شواطىء شمال إفريقية وشواطىء الشام أو شواطىء الحبشة — من ناحية ثانية ، ثم بمحاولة استخدام سلاح جديد لإماتة مصر وأهلها بوصفهم حتى القرن الخامس عشر أكبر قوة إسلامية تنهض بعبء الجهاد ؛ وهذا السلاح هو تغيير مجرى نهر النيل وقطع مياهه عن مصر .

يؤيد وجهة نظرنا السابقة جواب ألفونس الخامس على ملك الحبشة في أواخر سنة ١٤٥٠ ؛ وفيه يؤكد ملك أرغونة رغبته في أن يعمل ملك الحبشة على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب ، في الوقت الذى تتقدم أساطيل أرغونة وجيوشها لغزو فلسطين ودولة المماليك من ناحية الشمال (١) . وفي الوقت الذى كانت فكرة الغزو الحربي مسيطرة على عقول القوى المسيحية في القرن الخامس عشر ، كانت فكرة الحرب الإقتصادية تجد تأييداً قوياً من الدعاة وأصحاب المشاريع الصليبية ، حتى ذكر أحد هؤلاء الدعاة — وهو رامون لول — أن مقاطعة التجار الأوربيين لشراء التوابل من مصر لمدة ستة أشهر سيعرض دولة المماليك للإنهيار اقتصادياً وحربياً(٢) .

وثمة ملحوظة أخرى ثالثة هى أن ملوك الحبشة منذ أن أدركوا أهمية الرباط الدينى الذى يربطهم بالقوى الأوربية المسيحية ، أخذوا يغيرون نظرتهم إلى سلطنة المماليك في مصر ، فاستخفوا بها وازداد أسلوبهم في

---

(١) De La Ronciere : La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age, Tome 2, p. 119.

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant, Tome 2, p. 439 & Atiya : op. cit,, p.p. 74-94.

مخاطبتها جرأة وجسارة . وإذا كان أقصى ما تستطيع أن تفعله بهم سلطنة المماليك هو منع بطريرك الإسكندرية من تعيين مطران للحبشة وقت الحاجة ، فإنه ليس كفراً أو خروجاً عن الدين أن تولى كنيسة الحبشة وجهها شطر روما والكنيسة الكاثوليكية ؛ فالكل مسيحيون تستظلهم تعاليم عيسى عليه السلام . وإذا كان أقصى ما تستطيع أن تفعله سلطنة المماليك هو اضطهاد المسيحيين في مصر ، فإن ملك الحبشة يستطيع أن يرد بنفس السلاح فيضطهد المسلمين في بلاده .

وهكذا دخلت العلاقات بين مصر والحبشة في القرن الخامس عشر دوراً عنيفاً ، يتصف بالتحدى والإستثارة من كلا الجانبين ، فأبطل اسحق بن داود ملك الحبشة إرسال الأموال والهدايا المعتادة إلى بطريرك الإسكندرية وسلطان مصر جميعاً[١] . وتطرف ملك الحبشة في تضييق الخناق على المسلمين في بلاده ، وخاصة في إمارة عدل الإسلامية التى اضطر بعض أمرائها إلى الفرار إلى اليمن حيث استنجدوا بملكها الناصر أحمد ، فأكرم الناصر أحمد وفادتهم ، وزودهم بالخيل والمال والمعدات الحربية[٢] . هذا في الوقت الذى أخذ مسلمو الحبشة يتطلعون إلى سلطنة المماليك ، ويطلبون مساعدتها ضد العدوان المسيحى الحبشى . على أن سلاطين المماليك في مصر لم يكونوا أقل عنفاً في الرد على ملك الحبشة بنفس أسلحته . ويبدو أنهم عملوا على قطع الصلة بين الكنيستين المصرية والحبشية ، الأمر الذى جعل ملك الحبشة يولى وجهه شطر روما . وقد أدركت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية أنه خير للكنيسة الحبشية أن ترتبط بكنيسة روما من أن تضيع وتبقى وحيدة معلقة دون كنيسة أم تشرف عليها وتوجهها مما يعرض مصير العقيدة المسيحية نفسها في الحبشة للضياع . وهكذا أقر بطريرك الإسكندرية مشروع ربط الكنيسة الحبشية بكنيسة القديس بطرس في روما ، وخرجت من مصر إلى روما سفارتان سنة ١٤٤٠ ، إحداهما برآسة الراهب أندراوس الأنطوني

---

(١) Wiet : op. cit., p. 199.

(٢) ابن الديبع : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، ورقة ٢٩ (مخطوط) .

والأخرى برئاسة بطرس الشماس . وفي نفس الوقت حرص زرء يعقوب ملك الحبشة (١٤٣٤ — ١٤٦٨) على تكليف مقدم دير الأحباش بالقدس إرسال بعثة من الرهبان الأحباش للإشتراك في مجمع فلورنسا الديني (١٤٣٨ — ١٤٣٩) . وليس أدل على التقارب بين ملك الحبشة والبابوية في ذلك الدور من سماح البابا إيو جنيوس الرابع للأحباش بإقامة دير لهم في روما[١] .

ونستطيع أن نستكشف الكثير عن طبيعة العلاقات بين مصر والحبشة أواسط القرن الخامس عشر من الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة زرء يعقوب إلى السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣) ، وقد وصلت هذه الرسالة مصر سنة ١٤٤٣ م (٨٤٧ هـ) ، وذكر السخاوى نصها بالكامل ، وفيما يلى بعض فقرات منها :

« المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قنسطنطين ، من نسل أرعد ، من بنى سليمان بن داود عليه السلام . ملك سلاطين الحبشة ، وصاحب النواب بالمملكة النجاشية ؛ إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطان الملكى الظاهر جقمق ، سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام ، سيد الأنام ... قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم ... ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف ، والإتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف ... وأنتم حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعى من النظر في حال رعيته ، وأن الله يطالبه بذلك . وأبرنا البطريرك وإخوتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ، ضعفاء الحال مساكين في كل الجهات ، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا . وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما في بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم ولملوكهم مالكون ، ولم نزل نحسن إليهم في كل وقت وحين ... وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون

---

(١) Budge : A Hist. of Ethiopia, I, p. 311 &
Trimingham : Islam in Ethiopia, p. 67.

الخيل المسومة ... وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الإستطاعة على أن نمنع للزيادة التى تروى بلادكم ... ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله . وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه ؛ فاعلموا أنتم بما يلزمكم ، وبما يلقى الله في قلوبكم ، ولم يبق لكم عذر تبدونه ...[1] » .

هذه هى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان جقمق سنة ١٤٤٣ ؛ ومنها نستطيع أن نخرج بالمعاني الآتية : أولاً حرص ملوك الحبشة على عدم قطع علاقاتهم مع مصر قطعاً تاماً . ثانياً تعمد ملك الحبشة إظهار قوته وقدرته على إلحاق الأذى بالمسلمين في بلادهم ، وأنه إذا كان ممتنعاً عن ذلك ، فليس خوفاً من سلطان مصر ، وإنما رغبة في الاحتفاظ بحسن العلاقات معه . ثالثاً جمع ملك الحبشة في رسالته بين أسلوب التهديد وأسلوب الترغيب ، فلوح بقدرته على تحويل مجرى نهر النيل ، وذكر أن السلطان لم يبق له عذر بعد ذلك ، فإذا لم يحسن معاملة المسيحيين في بلاده فعليه أن يتحمل النتائج . . . وفي الوقت نفسه أرفق ملك الحبشة برسالته السابقة هدية للسلطان جقمق عبارة عن سبعين جارية وطشت وإبريق من ذهب وسيف مسقط من ذهب وحياصه وبناد ومهماز . وربما كانت هذه الهدية في حد ذاتها عاملاً مخففاً من عنف بعض عبارات الرسالة ، فاكتفى السلطان جقمق برفض طلبات ملك الحبشة ، وإن كان قد رد على هديته بهدية طيبة ، فيها سرجان من ذهب وشقق مذهبة ، وطائر مجوف مصنوع من البللور ، وقطع من الجوخ والصوف الملون ، وكمية من الزيت الطيب ... وحمل رسالة جقمق وهديته مبعوث خاص إلى ملك الحبشة هو يحى بن أحمد[2] .

ويبدو أن ملك الحبشة استاء من رد جقمق ، فحجز رسوله عنده ، وأمر بقتل سلطان عدل الإسلامية — وهو شهاب الدين أحمد في حضرة رسول السلطان . ولما بلغ السلطان جقمق ذلك ، استحضر بطريرك الأقباط

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ — ٧١

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١

فضربه وهدده بالقتل ، فأسرع البطريرك إلى كتابة رسالة إلى ملك الحبشة يحكى ما حل به من هوان ، ويطلب منه الإفراج فوراً عن رسول السلطان. فاستجاب ملك الحبشة أخيراً لذلك[١] .

ومن الواضح أن دولة المماليك كانت في ذلك الوقت — قرب منتصف القرن الخامس عشر للميلاد — تعاني كثيراً من المتاعب التى تعانيها كل دولة في خريف عمرها ؛ فانتاب الخلل جهاز الحكم ، وكثرت ثورات المماليك الجلبان ، واضطربت أطراف الدولة بالحركات الانفصالية ، وامتلأت أنحاء الدولة بالحركات الانفصالية ، وازداد خطر الإمارات التركمانية على حدودها الشمالية . . . كل ذلك في الوقت الذى ما فتئت القوى الأوربية المسيحية تفكر في الثأر لنفسها[٢] . لذلك وقف السلطان جقمق موقفاً سلبياً من ملك الحبشة ، وخاصة لأن موقع الحبشة الجغرافي كان يجعل الحطى بعيداً عن متناول يد السلطان . وإذا كان المسلمون بالحبشة لم يكفوا عن طلب النجدة من سلطان المماليك في مصر، فإن الظاهر جقمق اكتفى بأن أرسل رسولاً — هو مثقال الحبشى — إلى سلطان عدل ينصحه بمصانعة ملك الحبشة والبعد عن التطرف في سياسته معه ، حرصاً على سلامة مملكته .

وهكذا دأب سلاطين المماليك في مصر في أواخر أيام دولتهم على غض النظر عما كان يأتيه ملوك الحبشة من أعمال استفزازية . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٤٩ م (٨٥٣ هـ) أن حضر إلى مصر قاضى سواكن وأخبر السلطان جقمق أن زرء بن يعقوب أعد أسطولاً ضخماً من مائتى سفينة لغزو الحرمين والسيطرة على شواطئ الحجاز ، فضلاً عن تصميم ذلك الملك على قطع ماء النيل عن مصر . ومع ذلك استمر سلاطين المماليك في ذلك الدور يحسنون استقبال سفراء ملوك الحبشة وحجاجهم ، وهى السفارات التى تكرر وصولها، والتى أشرنا إلى بعضها في عهد السلطان الأشرف قايتباى والسلطان قانصوه الغورى .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٢

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٧٢ وما بعدها .

والواقع أنه بعد أن فشل ملوك الحبشة من ناحية وحكام القوى الأوربية المسيحية من ناحية أخرى في التغلب حربياً على دولة المماليك ، لم يبق أمامهم جميعاً سوى أمل واحد هو القضاء على تلك الدولة وإهلاك مصر وأهلها عن طريق حرمانهم من ماء النيل . ولم تكن هذه الفكرة — التى ازدادت رسوخاً في أواخر العصور الوسطى — جديدة ، وإنما ترجع جذورها إلى مدى عميق يمتد إلى عدة قرون سابقة[١] . وقد ورد في بعض الحوليات العربية التى ترجع إلى القرن الثالث عشر أن ملك الحبشة هو المسئول فعلاً عن الشدة المستنصرية العظمى التى ألمت بمصر زمن الخليفة المستنصر الفاطمى ، لأن ملك الحبشة هو الذى قطع ماء النيل عن مصر، ولم يعدل عن رأيه ويسمح بتدفق مياه النيل مرة أخرى إلا تحت ضغط البطريرك القبطى . وتردد هذا الرأى على نطاق أوسع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فذكر الراهب جور دانوس سنة ١٣٣٠ أن سلطان مصر كان يدفع إتاوة للأحباش حتى يسمحوا بجريان ماء النيل إلى مصر. وحوالى نفس الوقت ذكر ماريجونوللى أنه في استطاعة الأحباش أن يحبسوا ماء النيل عن مصر « وعندئذ تتعرض مصر للهلاك » . وفي سنة ١٣٨٤ ذكر سيمون سيجولى أنه إذا فتح ملك الحبشة مجرى نهر معين في بلاده ، فإنه « يغرق القاهرة والاسكندرية وجميع أرض مصر ...[٢] »

وإذا كان طريق الاتصال بين الحبشة والغرب الأوربي ظل صعباً طوال العصور الوسطى ، مما حال دون قيام الطرفين بعمل مشترك ضد مصر ، فإن تلك الصعوبة بدت في طريقها إلى الزوال عندما توصل البرتغاليون إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وفي الصدام الذى نشب بين البرتغاليين والمماليك عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، برزت الحبشة لتؤيد جهود البرتغاليين ، وتبدى استعدادها للوقوف إلى جانبهم ضد المسلمين. ويقال إن ملكة الحبشة في أوائل القرن

---

(١) Langer (W) : The Diplomacy of Imperialism, p. 103.

(٢) Idem ; p.p. 104-105.

السادس عشر — وهى الملكة هيلانة — بادرت بإرسال رسالة سنة ١٥١٠ م إلى عمانويل ملك البرتغال ، حملها إليه رجل أرمنى إسمه ماتيو ؛ جاء فيها : « السلام على عمانويل سيد البحار وقاهر المسلمين الكفرة . . . وصلتنا رسالة من قائد اسطولكم في بحر الهند يطلب تزويده بالعمال والجند . ونحن على استعداد لإمداده بما يشاء ، حيث أنه يحارب في الهند ليدافع عن عقيدة المسيح . كذلك بلغنا أن سلطان مصر قد جهز جيشاً كبيراً لمحاربة قواتكم ؛ ونحن على استعداد لمنازلة أولئك الكفرة ، وإرسال أعداد كبيرة من جنودنا إلى البحر الأحمر ومكة وجدة والطور ، لنقضى قضاء تاماً على الكفار . . . ونبعث لكم مع رسولنا صليباً مصنوعاً من قطعة حقيقية من صليب الصلبوت الذى صلب عليه السيد المسيح ؛ كما أننا على استعداد لتقوية أواصر المحبة بيننا وبينكم عن طريق تزويج أبناءنا من بناتكم والعكس . . . إن بلادنا داخلية بعيدة على شاطئ البحر ، وليس لنا أساطيل ، ولكننا على استعداد لإمدادكم بالرجال والمؤن . وإذا جهزتم ألف سفينة حربية ، فإننا على استعداد لتقديم الرجال المقاتلين اللازمين لها . . .[١] »

وهكذا وجد الأحباش حليفاً قوياً في البرتغاليين الذين اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصلوا إلى بحر الهند ، وأجمع الحليفان على مواجهة العدو المشترك ، ممثلاً في دولة المماليك . ولم يلبث ألبوكرك — مؤسس قوة البرتغاليين في الشرق (١٤٥٣ — ١٥١٥) — أن أخذ يفكر جدياً في تحويل مجرى نهر النيل ، فأرسل إلى الملك عمانويل طالباً إمداده بعمال من ذوى الخبرة في قطع الصخور . وذكر ألبوكرك في رسالته إلى الملك عمانويل إن ملك الحبشة « شديد الرغبة في إنجاز هذا المشروع لولا افتقاره إلى وسائل التنفيذ ، وإذا تم ذلك فإن البلاد المصرية ستهلك تماماً[٢] . . . ! ! » وإذا كان الموت لم يمهل ألبوكرك طويلاً ليواصل التفكير في مشروعه ، فإن خليفته سوارز أدرك أنه في حاجة إلى معونة ملك الحبشة للاستيلاء على جدة ،

---

(١) Kammerer : La Mer Rouge, Tomé 2, p.p. 254-255.

(٢) Langer : op. cit., p. 105.

بل للقضاء على دولة المماليك قضاءً تاماً . لذلك أرسل مبعوثاً إلى بلاد الحبشة طالباً معونتها لتنفيذ مشروعه الكبير ضد مصر[١] .

على أن الفتح العثماني لمصر ، وسقوط دولة البرين والبحرين — وهى دولة المماليك التى ملكت بر مصر وبر الشام وأطلت على البحرين المتوسط والأحمر — في قبضة السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧ ؛ جاء إيذاناً بمرحلة جديدة في التاريخ. ولعدة قرون تالية ، لم تعد لمصر سياسة خارجية مستقلة ، تتصرف بوحيها تجاه الحبشة أو غير الحبشة من القوى الخارجية ، وإنما كان عليها أن تسير في فلك السياسة العامة للدولة العثمانية .

---

(١) Kammerer : La Mer Rouge, 2, p. 265.